أسرار في السودان: الوجود الشيعي في السودان منظور موضوعي لمجابهة تمدد فكر الشيعي

د. امجد محمد إدريس

تقديم

حين نتحدث عن الوجود الشيعي فنحن لا نناقش موضوع جديد في عنوانه، فلقد أثار الوجود الشيعي في السودان العديد من الأقلام وكان مثار نقاش وجدل في الكثير من المنابر، فهو موضوع قديم متجدد بإستمرارية الحقائق التي سنتعرض لها في هذا المقال حول هذا الوجود. والحق يقال أن هذا الموضوع، وتناوله بطريقة موضوعية وبشئ من العقلانية في الطرح، هو بالفعل شئ صعب للغاية خاصةً مع التعقيدات الكثيرة المحيطة به بدءً من إيجاد مفهوم واضح حول من هم الشيعة كمجموعة إنسانية في المقام الأول من حيث الإنتماء العقائدي أو الفكري وكذلك لإرتباط هذا النهج مع بدأ الحرية الفردية مروراً بإرتباطه الوثيق مع أبعاد سياسية متعددة. فحين نغوص في رؤية الشيعة لأنفسهم وكذلك ما تطرحه الأطراف التي علي خلاف مع الشيعة حولهم ستجد عزيزي القارئ أنك تغوص في مجموعة متفرعة من المفاهيم حول طبيعة الشيعة معتقداً وفكراً. ففي حين تقوم الأسس العقائدية للشيعة علي أن المعتقدات الي يتبنونها هي عين وحقيقة الإسلام كدين، فهذا بالضرورة يؤثر علي ما يتبنونه من فكر ينطوي عليه الكثير من القضايا الخلافية شريعةً وفقهاً وبالتالي تنعكس علي منهاج الحياة الذي يحي عليه الشيعي الفرد قبل تكوينهم كمجتمع. ولعل هذا الجانب الواضح لنا كبشر، لأنه لا قدرة لنا للدخول إلي قلوب الناس والإطلاع علي نوايهم، هذا الجانب هو ما يثير المحفزات لدى شخص مثلي لكي يشحذ قلمه ويبدأ في تحليل بعض من ملامح الوجود الشيعي في السودان.

لعله سيكون من المفيد بدءً أن نشير إلي أن هذا المقال لم يبرز كردة فعل لبعض الاحداث التي حدثت في السنوات القليلة الماضية التي أثارت الحديث حول الوجود الشيعي في السودان، والتي كان أخرها ما تناولته وسائل الإعلام حول ما حدث في منطقة جبل الأولياء في الخرطوم حين أقيم أحد الإحتفالات الدينية لمجموعة من المتشيعين في السودان، وغيرها من الأحداث الاخرى. لكن وجدت أنني أنطلق مبدأً من نقطتين أساسيتين: أولهما أن الدين الإسلامي الحق هو ما تركنا عليه الحبيب المصطفى صلوات ربي وسلامه عليه وعلي آله ومن بعده أصحابه من التابعين وتابعيهم بإحسان، وأتمنى أن تكون عزيزي القارئ علي إطلاع بكافة محاور الأبعاد العقائدية للشيعة حيث لن يكون المقام متاحاً هنا للحديث حول هذا الجانب المهم، ثانيهما أن مشاهداتي وتحليلي حول تاريخ المتشيعين حول العالم يشير بوضوح أن هذه الفئة ما دخلت يوماً علي أمة من الأمم أو شعب من الشعوب إلا وأتت عليه لاحقاً بالصراعات والحروب، وما الحوثيين في اليمن والبحارنة في البحرين والعلويين في سوريا وحزب الله في لبنان منا ببعيد وهذه خير أمثلة وأدلة علي ذلك، أضف إلي ذلك وجودهم في نيجيريا وباكستان وافغانستان وما صاحب ذلك من بداية إضطرابات أثرت وستؤثر بالفعل علي إستقرار هذه الدول.

وكما ذكرت سابقاً فإن تناول قضية الوجود الشيعي في السودان بشكل موضوعي تحده عدد من المحددات علي رأسها مفهوم الحرية الفردية في التعبير والمعتقد. وقد وجدت نفسي متنازعاً داخلياً بين مبدأين أساسيين يدور أولهما حول إيماني بأهمية مد مساحة هذه الحرية الفردية إلي أبعد الحدود وبشكل خاص الحرية الدينية التي كفلها الله عز وجل للإنسان بقوله سبحانه وتعالى (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) إلي اخر الاية، وصدق عز من قائل. لكن هذا المبدأ حاوره وشاكسه بشدة نزعة داخلية حول أساس المعتقد الديني الشيعي علي أنه هو عين الإسلام إضافة إلي ذلك أن نشر هذا الإعتقاد لم يعتمد علي وسائل الدعوة الفكرية المجردة من التحايل أو علي الوسائل المقبولة أخلاقياً، ولكن تعداها إلي الكثير من الوسائل المرفوضة للكثيرين إستناداً فقط إلي أساسيات الطرح الفكري المتعارف عليه. فعلي سبيل المثال سنجد أن الدعوة إلي التشيع تتستر خلف محبة أهل بيت النبي عليه الصلاة والسلام نفاقاً وكذباً لإستغلال العاطفة أكثر من الحجة، إضافة إلي إستغلال الطبيعة المتسامحة للمجتمع السودان، لكن في ذات الوقت هذه الوسائل أساسها البغض والكراهية لأهل السنة وبث هذه الروح في من ينتمي إلي جماعتهم، أضف إلي ذلك إستهدافهم للمدخل الفكري الضعيف التكوين في ربط الإسلام بمظاهر تعبدية في المجتمعات بصورة محددة بحيث يتم إستغلال هذه المكونات في تركيبة المجتمع كأساس لنشر الدعوة التي يتبنونها، مثل إستغلال التصوف كمظهر من مظاهر التعبد في المجتمع السوداني. والمتتبع للكثير من الوسائل التي يتم إستخدامها سيجد أنها قائمة علي إستغلال الضعف الإنساني في الكثير من النواحي التي سنتناولها لاحقاً بشئ من التفصيل.

لكل هذا، وجدت نفسي أميل للإعتقاد بأن المساحة ما بين حرية المعتقد وما بين السماح لعقيدة تتنافى مع العقيدة الصحيحة لأهل السنة في السودان، وغيره من الأماكن، هي مساحة كبيرة للغاية ولا يجب التحجج بها في هذا الجانب. فالحرية العقائدية بشكل خاص في نشر تبني عقيدة ما يجب أن ينظر إليها في سياقها وليس بتناولها مبدأً وعدم الحديث عنها تفصيلاً في سياق محدد. فنشر الإسلام كدين مرتبط بالضرورة مع أساس الإيمان الصحيح العقيدة، وليس ذلك يرتبط بالإيمان أو الإسلام المشوه الذي يدعو له هؤلاء الشيعة. فإما أن يكون المعتقد الإسلامي مرجعه إلي شريعة الله التي أنزلها علي رسول الله وعلي سنة نبيه محمد عليه الصلاة السلام وما تركنا عليه ومن بعده اصحابه .... وإما فلا. وهذا الأمر ليس محل جدل فلسفي حتى لا يطل علينا مطلٌ من هذا الباب مدعياً بأن مناهضة الفكر الشيعي تتعارض مع مبدأ الحرية في العقيدة أو أن الفكر الشيعي هو فكر إسلامي.

ولعل المثير في الأمر أن الإطار العام لتناول التواجد الشيعي هو من مظاهر من يقودون الصراع حول ضرورة الإلتزام بمدنية الدولة بشكل أعمي وسطحي دون النظر إلي لب المفهوم وإنعكاساته علي الدولة وإستقرارها علي المدى البعيد. ففي أكثر الدول منادة بالحرية الفكرية والعقدية مثل الولايات المتحدة وغيرها سنجد أن الدولة ومؤسساتها تقوم بالفعل بمحاربة الفكر الإسلامي الجهادي والجماعات التي تتبناه لأسباب قد تكون موضوعية من وجهة نظر الدولة وتبرر لهذا النهج، وتفعل كل ما في وسعها داخل وخارج حدودها لإيقاف هذا الفكر وإجتثاثه من جزوره. لذا لا أجد أن من يتبنى المنطق المطلق لهذا المفهوم يسير في الإتجاه الصحيح أو يضعه في السياق الصحيح. من حق أية مجموعة فكرية لديها معتقد أو رؤية أن تمنح المساحة في طرح رؤيتها للناس يتفق معهم من أراد والذين يخالفونهم في وجهات النظر عليهم أن يحاوروهم بمبدأ الحجة بالحجة والمنطق بالمنطق دون تعصب، هذا بالتأكيد صحيح من جانب، لكن في المقابل نحن نتحدث عن فكر وعقيدة تهدد الإستقرار الإجتماعي والسياسي في مجتمع السودان الذي يعاني بالأساس من العديد من المهددات التي تقض مضجع الجميع، فهل نتيح المجال لفكر هدام مثل الفكر الشيعي ليستبيح المجتمع السوداني من هذا المنطلق ونحن نعي بالضرورة ما قد يؤول إليه الواقع في المستقبل؟ ..... لا!. فالتجارب تقول أن تطور الفكر الديني الشيعي يتحول في نهاية المطاف إلي صراع علي الوجود أو صراع علي فرض الوجود، وللأسف كل التجارب تشير إلي الإستعداد التام لإستخدام القوة والسلاح لتحقيق هذا الهدف.

وبالرغم من أن الفكر الشيعي هو مذهب كغيره من حركات الفكر الديني، إلا أن حقيقة إرتباط إنتشاره ودعمه بمحور وإنتماء سياسي لا يخفى علي العيان، مما يجعلنا نؤكد علي أن طريقة إنتشاره قد خرقت بالفعل أحد أهم أساسيات إتاحة الحرية في نشر الفكر والرأي. فتعقيدات الإرتباط بين المد الشيعي والقضايا السياسية المرتبط

بها هي بالضرورة تزيد من خطورة تناول هذه القضية. وهذا الأمر أيضاً مهم حتى لا يتم تجريد الموضوع الذي نود طرحه في هذا المقام من سياقه والتركيز علي محور واحد يدور حول مفهوم الحرية فقط. حالياً يرتبط المد الشيعي حول العالم، وليس السودان فقط، بعدة قضايا نذكر بعضها وليس جمعيها علي سبيل المثال في (أ) المجموعات المناهضة للإسلام بشكل عام وعلي رأسها اليهودية كدين والصهيونية كحركة سياسية، وغيرهما، يرون في المد الشيعي فرصة يجب إستغلالها من جانب لإيجاد شروخ في الهوية في المجتمعات المسلمة وفي ذات الوقت فرصة جيدة لمناهضة الإسلام السياسي والإسلام السلفي بكافة أشكاله ومؤسساته، لكن في ذات الوقت هناك أبعاد وتحديات سياسية مرتبطة بذلك علي رأسها امن إسرائيل كدولة، ويجب الفصل بين البعدين الديني والسياسي في هذا المقام. (ب) رغبة دول المحور الشيعي وبشكل خاص إيران في زيادة أعداد المتشيعين من سكان منطقة الشرق الأوسط بإعتبارها إمتداد جغرافي وإستراتيجي مهم للغاية بالنسبة لدول هذا المحور، وقد قام أحد المدونين علي شبكة الإنترنت بإختصار هذا الجانب بقوله "المذهب في خدمة الأهداف الاستراتيجية، والأهداف السياسية والاقتصادية في خدمة نشر المذهب الشيعي" كما سنتناول ذلك فيما بعد بشئ من التفصيل أيضاً، الوسائل التي تستخدمها الجماعات المتشيعة مثل نشر الكتب وغيرها من المواعين الفكرية، لكن يجب أن نؤكد علي أن حرية النشر لا تعني الطعن في ثوابت الأمة فليس كل شيء مسموح به وللحريات حدود لا تتعداها.

سنتاول في هذ المقال لحاقاً وبشي من التفصيل توصيف عام للوجود الشيعي في السودان كما سنقوم بعرض عدد من الإستراتجيات التي يستعملها المتشيعة والشيعة في نشر مذهبهم في السودان وذلك بتحليل كافة المعلومات التي وردت من مختلف المصادر حول التواجد الشيعي في السودان. وبالرغم من كونها عملية معقدة للغاية حيث أنها تقوم بالأساس علي تحليل معلومات من مصادر مختلفة وليست بالضرورة قائمة علي وثائق محددة، لكنها في ذات الوقت من الأهمية بمكان لفهم شكل الوجود الشيعي في السودان وكيف يقوم قادة المذهب بنشر أفكارهم، إضافة إلي ذلك فإن فهم هذا الجانب سيساعد بالضرورة في إتخاذ إستراتجيات مضادة لهذه الوسائل التي يتم إستعمالها وبالتالي المساهمة في وقف هذا المد. وتأتي مبادرتي هذه للتأكيد علي مفهوم أن الأمن الفكري والإجتماعي هو بالفعل مسؤولية مشتركة بين الجميع، وعلينا جميعاً أن نجد السبل التي يمكن أن نساهم بها في هذا الجانب، كلٌ وفق قدراته والوسائل التي يجدها مناسبة في ذلك حتى لا نجد مجتمعنا مفتتاً ومتطاحناً مثل ما حدث ويحدث في العراق، سوريا، لبنان واليمن والواقع أكثرُ تعبيراً من القلمِ.

من الهام أن أؤكد في هذا الجانب أنني لست من دعاة نشر الكراهية أو الحقد بين مكونات المجتمع، لكن أنا وغيري وجدنا أنفسنا في موقع المتصدي لتعدي الشيعة علي مجتمعنا الذي لا ينقصه ما يأتي به هؤلاء. لا أود أن أدافع عن منطلقي ومنطلق الكثيرين غيري حين نجد أنفسنا أمام قضية جوهرية تمس الدين والعقيدة وفي ذات الوقت تمس أمن وإستقرار المجتمع السوداني، وحينها لا ولن نقف مكتوفي الأيدي. وأدعوك عزيزي القارئ إلي تتذكر (إذا رأى أحدكم منكراً فلغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) صدق حبيبي المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ورضوان ربي علي أهل بيته وصحابته أجمعين، ويا الهي إحفظ بلادنا وبلاد المسلمين من كل الفتن ما ظهر منها وما بطن .... امين يا رب العالمين!

رصد الوجود الشيعي في السودان

في هذا الجانب من المقال سنتناول بصورة سريعة بعض الحقائق التي تتيح لنا رصد الوجود الشيعي في السودان وذلك من خلال تناول تاريخ الوجود الشيعي في السودان، عقيدة وإنتماء شيعة السودان مع تناول أعدادهم التي وردت عن بعض المصادر وأخيراً نتناول بإيجاز المؤسسات التي تمثل واجهة الوجود الشيعي وقادتهم في السودان. من المهم والمنصف أن أقر بأن كاتب هذه الكلمات لم تتاح له الفرصة للتحقق بنفسه من كافة المعلومات التي سنوردها هنا وذلك لأسباب كثيرة أهمها مبدأ التقية التي يتبعها الشيعة في التعامل مع مجتمعاتهم التي يعيشون فيها والذي سنتناوله لاحقاً، وكذلك أن الدراسات المنهجية التي رصدت الوجود الشيعي في السودان هي قليلة في عددها وضعيفة في تغطيتها لكافة المواضيع المرتبطة بالوجود الشيعي في السودان وغيرها من الأسباب. بالرغم من أوجه القصور في عملية الرصد إلا أن ذلك لا يتنافى مع قيمة المعلومات التي سنوردها في هذا الجانب كما سنقوم بإيراد مصادرها بغرض التوثيق ولتوضيح هذه المصادر.

لماذا السودان:

لابد أن نعي أن التمدد الشيعي ليس تمدداً دينياً وفكرياً فقط بقدر ما هو تمدد إستراتيجي وسياسي واقتصادي في دول أفريقيا عموماً ومدخله إلي أفريقيا هو السودان، وكنا قد أوردنا في مقام اخر في هذا المقال المبدأ القائل أن "المذهب في خدمة الأهداف الاستراتيجية، والأهداف السياسية والاقتصادية في خدمة نشر المذهب الشيعي" وهو مفهوم أساسي يجب وضعه دائماً بعين الإعتبار. تحمل قيادات الفكر الشيعي في السودان آمال عريضة يبشرون بها أنفسهم بأن الفترة المقبلة هي فترة التشيع في أفريقيا ويعيشون هذه الآمال ويسعون لتحقيقها، ويعلمون تمام العلم أن السودان هو عمق افريقيا بكل مافي ذلك من معنى، خاصة أفريقيا المسلمة. هذا بالطبع

بالإضافة إلي أسباب أخرى مرتبطة بالسودان بشكل خاص ومن حيث الإعتبارات الأيديلوجية المتمثلة في تركيبة سكانه العقائدية وآمال قادة الفكر الشيعي في توسع فكرهم ليغطي هذه المساحة من العالم الإسلامي السني الإنتماء.

تاريخ الوجود الشيعي في السودان:

تضاربت المصادر والروايات التي تؤرخ للوجود الشيعي في السودان بدون وجود مصدر توثيقي محدد يمكن الإستناد عليه في هذا الجانب. وقد تأرجحت الروايات ما بين ما يرويه الشيعة أنفسهم وما بين من يرويه غيرهم عن بدايات دخولهم للسودان والفترة التاريخة المحددة لذلك. وأجدني أميل أن لا أكتب كثيراً عن التاريخ من أجل رصد التاريخ فهذا ليس مقامه هنا بل لتكملة الصورة في موضوع المقال. ولعل المثير في هذا الجانب أن هناك عدد من المقالات تحدثت عن هذا الجانب حيث تناولت تجربة الدولة الفاطمية الإسلامية التي دعمت نشر الفكر والدعوة الشيعية وما صاحب إنهيار هذه الدولة من أحداث شارك فيها جنود من السودان، وما بني علي ذلك في إثبات أن التشيع موجود في السودات منذ ذلك الوقت وغيرها من الأفكار. وأرجو أن تتاح لك عزيزي القارئ الفرصة أن تطلع علي هذه المصادر لزيادة معرفتك في هذا المجال. في هذا الإطار نذكر بعض ما ورد من هذه المصادر بدوت التامين علي أحد المصادر علي أساس أنه موثوق دون الاخر:

1. في **حوار لصحيفة الشرق الأوسط مع أحد المتشيعين في السودان في العام 2009**، ورداً علي سؤال عن بداية ظهور الوجود الشيعي في السودان رد هذا الشخص قائلاً "*دخل الشيعة في السودان تقريباً في عام 1987م، عندما ظهرت مجموعة من الطلاب في جامعة القاهرة فرع الخرطوم آنذاك في مراحل دراسية مختلفة محسوبين على تنظيم طلاب الاتجاه الإسلامي في الجامعة*. وعليه وإستناداً علي هذا المصدر فإن الوجود الشيعي أتي نتيجة نشاط طلابي فردي لبعض الطلاب الذين تبنو التوجه الشيعي.
2. **المكتبة الإلكترونية لموقع مركز الأبحاث العقائدية** علي شبكة الإنترنت ذكرت أن "*تاريخ دخول التشيع في السودان هو القرنين الثالث والرابع الهجريين ... وهذا قديم بقدم دخول الإسلام للسودان ... والدليل على قدم الوجود الشيعي بالسودان وجود أُسر شيعية الأصل غالبها من السادة الأشراف، وتأريخ وجود هذه الأُسر بالسودان يرجع لفترات بعيدة كأيام الفاطميين بمصر والدولة الإدريسية بالمغرب وهذا في القرن الثالث والرابع الهجري*". والجدير بالذكر أن مركز الأبحاث العقائدية هو مؤسسة شيعية مقرها في العراق وتهتم بالدراسات المتعلقة بشئون الشيعة ودعم ذلك بمختلف الوسائل.

3. **موقع سودانيز أونلاين قدم مقالة توثيقة للأستاذ أبو البشر أبكر حسب النبي** والتي بذل فيها جهداً مقدراً لرصد الوجود الشيعي في السودان، وقد ذكر أن "*أول كيان شيعي في السودان هو جمعية الرسالة والتضامن، التي تم تسجيلها بشكل رسمي في العام (1984م)، وقامت بأنشطة كثيرة، منها معارض بالجامعات السودانية وبخاصة في (جامعة النيلين)، وهذه الجمعية تعتبر أول نواة لعمل شيعي في البلاد*". وقد يتسق هذا التاريخ والرواية مع مع ذكره المصدر الأول أعلاه.

عقيدة وإنتماء شيعة السودان:

ترددت كثيراً في تناول هذا الجانب لإعتقادي بأن تناول العقيدة أمر معقد وفيه من المسئولية ما فيه، لذا قررت أن لا أغوص في التحليل العميق وإنما سنكتفي للتطرق للشكل العام لبعض ملامح الإنتماء في المعتقد لشيعة السودان.

- معتقدات الشيعة في السودان تدور في ذات فلك المعتقدات الشيعية الأساسية بإختلاف طوائف الشيعة مرجعياتهم الدينية، لذا يمكن القول بأن شيعة السودان هم بالأساس إمتداد لطوائف الشيعة في دولتي إيران والعراق بشكل رئيسي. ولم يقدم شيعة السودان مرجعيات دينية جديدة في الفكر الشيعي حتى الان مما يدل علي أنهم بشكل كبير يدينون بولائهم لمرجعيات العراق وإيران.
- شيعة السودان أكثرهم يعتمدون في مرجعية أحكامهم الشرعية إلى بعض قادة الفكر الشيعي في مدينة النجف وكربلاء بالعراق، أمثال محمد سعيد الحكيم، الشيخ اسحق الفياض، محمد تقي المدرسي وصادق الشيرازي، وقليل من شيعة السودان يرجعون لمرجعيات إيرانية مثل علي الخامنئي، محمد صادق الروحاني ومحمد حسين فضل الله، وتختلف المرجعية لإعتبارات كثيرة لا مجال لذكرها هنا. لكن وفق مصادر متعددة فيمكن تقسيمهم إلى عدة تيارات شيعية هي تيار الخط العام وهو خط الإمام الخميني وتيار الإمام محمد حسين فضل الله في لبنان وتيار الإمام محمد تقي المدرس من كربلاء في العراق، وهناك شيعة سودانيون أطلق عليهم المحليين حيث لا ينتمون إلى أي تيار من التيارات السابقة ولكنهم يؤمنون بالمذهب الشيعي ويتفاوتون في إنتمائهم المرجعي وفقاً للمجالات الفقية المختلفة.
- الشيعة في السودان يميلون للقول بأن الأساس الصوفي للكثير من مكونات المجتمع السوداني تضعهم في خانة متقاربة مع هذه المكونات، ويدعون بالإرتباط والإنتماء الوثيق بين المجتمعين الشيعي والصوفي. بالرغم من ذلك نجد أن الكثير من قادة الشيعة بشكل عام يكفرون من هو علي غير ملتهم

ويخصون بذلك في الكثير من الأحيان المجموعات المتصوفة، وفيهذا تناقض غريب ليس هذا مقام تحليله.

- الفكر الشيعي بالرغم من أن أساسه ديني في المقام الأول، إلا أن غياب مرجعية القرآن وسنة النبي صلوات ربي وسلامه عليه، جعلت من هذا الفكر عرضة للكثير من الغلو والتعدي علي ما هو محرم وما هو جائز والمساحة بينهما كبيرة لكنها واضحة. هذا الأمر حدا بالكثير ممن يدعى إمتلاك ما يجعله ولياً أو فقيهاً أيان كان ما يحمل ذلك من معنى أن يأتي بأفكار تنسب للإسلام وما هي للأسلام في شي ويتم تناولها بإسم الدين. الشيعة في السودان ليسو بإستثناء من هذا الأمر، حيث نجدهم يتبعون ذات المنهج لكن كما أشرنا سابقاً فغالباً ما يكون ذلك تحت مسميات كثيرة لا مجال للخوض فيها هنا.

أعداد الشيعة في السودان:

أعداد الشيعة في السودان كانت وستظل أحد القضايا الجدلية والتي دار حولها الكثير من النقاش وهو ما يشير إلي عدم وجود أرقام محددة يمكن أن يتم الإتفاق عليها. وكما فعلنا سابقاً سنقوم بسرد سريع للعدد من الروايات حول أعداد الشيعة ومصادرها، ثم سنتناول الأسباب المرتبطة بعدم وضوح هذه الأعداد بشئ من التفصيل لاحقاً.

- قدمت دائرة المعارف الحسينية، وهي جهة معنية شيعية تعنى ضمن إهتماماتها برصد الوجود الشيعي في العالم، قدمت بعض مصادرها إحصائيات في العام 2010 تشير إلي أن الشيعة في السودان عددهم حوالي 667 الف شخص اي ما نسبته (1.9%) من إجمالي السكان. ما يلفت الإنتباه في هذا العدد أنه ليس برقم تقديري فهو رقم دقيق بشكل كبير خاصة في عرض النسبة التي ذكرناها.
- صحيفة سودانيل الإلكترونية أشارت إلي إحصائيات غير رسمية في العام 2013 بأن نسبة الشيعة في السودان وصلت إلي ما يقارب (5%) من السكان، أي مليون و550 الف شخص، وهو أكثر من ضعفي العدد الذي ذكرته دائرة المعارف الحسينية. ويظل هذا العدد تقديري بشكل كبير خاصةً أن الجهة التي أوردت هذا التقدير غير معروفة.
- وفقاً لموقع مركز الأبحاث العقائدية الشيعي علي الانترنت، والذي أشرنا إليه سابقاً، فإن عدد الشيعة في السودان بلغ 130 ألفاً شخص وهو ما نسبته بالتقريب (0.4%) من إجمالي عدد السكان، ولم يوضح الموقع العام الذي وضع فيه هذا التقدير.

- كنا قد أشرنا سابقاً إلي الحوار الذي أجرته صحيفة الشرق الأوسط مع أحد قادة المتشيعين في السودان في العام 2009 وقد حاول الصحفي المحاور أن يطرح عدة مرات سؤال حول تقديرات أعداد الشيعة في السودان، ولكن لم يقدم الضيف أي معلومة تدل علي هذا الوجود من حيث الأرقام متعذراً بعدد عن من الأسباب، لكن لعل مفهوم التقية قد يكون هو أساس الحوار بشكل أساسي في هذه النقطة.

كما قد تكون لاحظت عزيزي القارئ أن هناك تضارب وتفاوت كبير في الأرقام التي ذكرتها هذه المصادر المختلفة وكذلك عدم وجود إتساق بين الطريقة التي يتم بها بناء هذه الإحصائيات من مصدر يقدم تقديرات إلي مصدر اخر يقدم أرقام دقيقة للغاية، عدم الإتساق هذا سنجده كذلك في مصادر الشيعية لنفس المعلومات. ولعل هذا الجانب هو أحد العوامل التي أسهمت بشكل كبير في جعل الوجود الشيعي في السودان هو أحد الألغاز الكبيرة في واقع الحياة والمجتمع في السودان.

مؤسسات الشيعة وقادتهم في السودان:

في هذا الجانب سنقوم بسرد سريع لبعض المؤسسات التي تنسب إلي الشيعة في السودان وذلك وفقاً لما تردد في مختلف المصادر خاصةً علي شبكة الإنترنت. قد لا نكون نملك معلومات دقيقة في الوقت الحالي حول من هم قادة شيعة السودان لكن بالتأكيد هنا عدد من الإشارات القوية التي تشير إلي البعض منهم، منها علي سبيل المثال اللقاءات الإعلامية في التلفاز والصحف مع بعض المتشيعين، كذلك ورود هذه الأسماء في عدد من المصادر حول إرتباطها بالنشاط الشيعي في السودان وكذلك ما قامت به مجموعة نشطة إعلامياً تقوم بالأساس علي نشر العديد من المعلومات حول الوجود الشيعي في السودان وطرحت معلومات حول أسماء ممن قدمتهم بصفتهم قادة الشيعة في السودان. ونعيد التذكير بأن كاتب المقال لا يمتلك أدلة قوية في هذا الجانب وإنما فقط بناءً علي عملية الرصد التي قام بها.

في جانب مؤسسات الشيعة رصدنا الأتي:

- ذكرت صحيفة المجهر السياسي السودانية في مقال لها في العام 2012 بأن "أول كيان شيعي في السودان هو جمعية الرسالة والتضامن، التي تم تسجيلها بشكل رسمي في العام 1984م، وقامت بأنشطة كثيرة، منها معارض بالجامعات السودانية وخاصة في جامعة النيلين، وهذه الجمعية تعتبر أول نواة لعمل شيعي في البلاد".

- شأنها شأن الكثير من المجموعات الشيعية في البلدان الاخرى، فإن للشيعة في السودان ما يعرف بالحسينيات، وهي أماكن تجمع الحسينيات التي أُستبدلت مكان الجوامع والمساجد، وقد تعدد الروايات عن عدد وتوزيع هذه الحسينيات في السودان، وقد قدمت صحيفة المجهر السياسي السودانية في ذات المقال الذي أشرنا إليه سابقاً بأن عدد الحسينيات في العام 2012م بلغ 114 حسينية في مقدتمها حسينية المرتضى بمنطقة الخرطوم شرق والتي أسست في العام 1990م.
- أشار الكاتب السوداني د. عبد الرحيم عمر محي الدين في كتابه "الإسلاميون في السودان دراسة التطور الفكري والسياسي"، أشار إلي أن جمعية العمل الرسالي هي جمعية أسس من حيث المبدأ لدعم نشر فكر الثورة الإسلامية الإيرانية وهو ما عرف لاحقاً بخط الإمام كمفهوم لتطبيق النظرية الثورية الإسلامية في السودان. هذه الجمعية وإن لم تكن مؤسسة شيعية في أساسها إلا أنها تقدم مساحة متقاطعة مع الفكر الشيعي الذي يأخذ مبادئ العقيدة الدينية الشيعية كأحد المنطلقات التي تبنى عليه محاور سياسية عدة علي رأسها الإمامة بالولاية كمفهوم سياسي وديني أصيل عند الشيعة.
- رابطة سفينة النجاة الثقافية الإسلاميّة هي من المؤسسات المعروف إرتباطها بنشر الفكر الشيعي علي العلن ومهمة هذه الرابطة هي رفع الوعي والمعرفة الدينيّة بين الشيعة السودانيّين، وقد وجدنا الكثير من المصادر التي تؤكد علي هذا الأمر.
- خلال عملية الرصد والتحليل التي قمنا بها وجدنا عدد من المؤسسات التي تم الإشارة لها علي أساس أن لها صلة بالعمل الشيعي في السودان، ولكن لم يتسنى لنا أن نتحرى من مصداقية هذه المعلومات، وهي:
  - منظمة الفجر الصادق: ووفقاً لموقع المنظمة وهي مسجلة رسمياً، فهي توصف نفسها علي أنها منظمة خيرية طوعية دعوية تكافلية أنشأها مجموعة من الشباب الخيرين ، للنهوض بالمجتمع دينياً وأخلاقياً وتفعيل العمل الطوعي.
  - منظمة جهاد البناء الإيرانية: وهي منظمة تقوم بتنفيذ عدد من المشاريع التنمية الخدمية بناء علي إتفاقيات بين حكومتي السودان وإيران.
  - مؤسسات تعليمية: خلال النقاشات التي دارت في إحدى الندوات التي تناولت الوجود الشيعي في السودان، ورد علي لسان الشيخ أبوزيد محمد حمزة، وهو من قادة جماعة أنصار السنة المحمدية أن هناك عدد من المؤسسات التعليمية المرتبطة بنشر الفكر الشيعي في السودان، حيث ذكر بأن "*للشيعة عدة مراكز ومدارس، منها مدرسة الإمام علي بالحاج يوسف، ومدرسة الجيل الإسلامي بمايو، ومدرسة فاطمة الزهراء بمايو، ومدرسة السجادة التعليمية بأم مبدة، ومعهد الإمام علي بأم درمان*".

- مؤسسات ثقافية: في ذات سياق الندوة التي أشرنا لها أعلاه ورد ذكر عدد من المؤسسات الثقافية المتعددة المجالات والتي ذكر أنه قد يكون لها إرتباط بالمد الشيعي في السودان منها مركز الإمام جعفر الصادق بالعمارات، بالإضافة إلي عدد من المكتبات المنتشرة في ولاية الخرطوم وأهمها مكتبة الخرطوم ومكتبات أم درمان، الكوثر، فاطمة الزهراء ومكتبة الفقه الإسلامي.

أما فيما يلي تحديد وتعريف قيادات الفكر الشيعي في السودان، ورجوعاً لمفهوم التقية كأحد أهم العوامل التي تحول دون معرفة من هم هؤلاء الأشخاص بصورة قطعية، سنجد أن ذلك يتصل بصورة كبيرة بنفي عدد ممن حاورتهم وسائل الإعلام المختلفة في الفترة الأخيرة ممن ينتمون للتيار الشيعي في السودان بأن للشيعة قادة أو زعماء محددين في السودان وهو بالطبع ما يتنافى مع المنطق المطلق لأي فكر مذهبي، إذ لابد من وجود من يرعاه لكي ينمو، وكذلك يتنافى وبصورة مثيرة للإستغراب مع قواعد العقيدة والفكر الشيعيين. وهناك جانب مهم يجب ذكره هنا أن الأسماء التي سنوردها لاحقاً هي أسماء بالضرورة معروفة داخل وخارج السودان ولا ينكرون الفكر الذي ينتمون إليه، لكن ما يثير القلق هو الأسماء والقيادات داخل السودان الذي لم يتم التعرف عليهم حتى الأن، وهو ما قد نكون بحوجة إلي معرفته بصورة أكبر والتركيز عليه مستقبلاً.

وقد قدمت صفحة علي موقع التواصل الإجتماعي الفيسبوك تعرف بإسم "معاً ضد المد الشيعي في السودان" مجموعة من أسماء من قالت بأنهم من قيادات الشيعة. وقد قدم القائمين علي إدارة هذه الصفحة عدد من المقالات تحت عنوان (قادة شيعة السودان تحت المجهر) والهدف منها بشكل أساسي التعريف بمن يعتبرون من قادة الشيعة في السودان. سنقوم بذكر بعض الأسماء التي وردت هنا مع محاولة التركيز علي الأسماء التي ثبت إرتباطها بالشيعة في السودان من خلال طرحهم لهذا الفكر بصورة أساسية من خلال وسائل الإعلام المختلفة.

1. عبد المنعم حسن: هو كاتب سوداني معروف وقانوني الخلفية قدم كتاب "بنور فاطمة إهتديت" وهو من الكتب المعروفة والموثقة لدى عدد من مكتبات الشيعة في خارج السودان.

2. معتصم سيد احمد: مفكر شيعي معروف خاصةً في منطقة أفريقيا وقدم عدد من الكتب منها كتاب (الحقيقة الضائعة) و كتاب (رحلتي نحو مذهب آل البيت عليهم السلام).
3. متوكل محمد علي: وهو مقدم كتاب (ودخلنا الباب سجدا) وله شانه شأن الكثير من المفكرين الشيعة أراء متطرفة للغاية في قضية الإمامة التي هي من أهم مبادئ الإختلاف بين الشيعة والسنة.
4. محمد احمد النور الزاكي: إلتقت به قناة الدعاء الفضائية المتبنية للفكر الشيعي وذلك عبر برنامج مستبصرون وقدم فيها تجربته مع التشيع (أو الإستبصار كما يسميه الشيعة). وإن لم يكن هناك ما يشير إلي في حديثه إلي كون أنه من قادة الشيعة في السودان، إلا أن إهتمام القناة بتقديمه علي أساس أنه نموذج للشيعة السودانيين يضعه في مصاف من هم في الصف الأول للمتشيعين السودانيين، ومعروف عنه كذلك أنه رئيس رابطة النجاة الثقافية الإسلامية.
5. النيل أبو قرون: أثار الكثير من الجدل في الأونة الأخيرة ما بين كونه شيعياً بل وأعتبره الكثيرون زعيماً للتيار الشيعي في السودان، وما بين ما يذكره هو بنفسه عن إنكار هذا الأمر بالقول بأن هذه مجرد أقاويل، وما بين ما قامت به عدة جهات، منها مجمع الفقه الإسلامي السوداني، بالدعوة له بالإستتابة والرجوع إلي العقيدة الإسلامية الصحيحة في الأونة الأخيرة، بالرغم من تقديمه عدد من الرسائل المعروفة بإسم "أحبابي" والتي عبر فيها صراحة عن الكثير من الأفكار الشيعية المعروفة. وذكر موقع "معاً ضد المد الشيعي في السودان" غيرهم من الأسماء التي لا يمكن تصنيفهم علي أساس أنهم من القيادات لكن بالضرورة هم من حاملي وناشري الفكر الشيعي.

الدكتور عبد الرحيم عمر محي الدين رئيس مركز الخرطوم للوحدة الإسلامية هو من الأسماء المثيرة للجدل بصورة كبيرة وخاصةً في أوساط المنتمين للتيار الإسلامي، فبالرغم من عدم كونه ممن يمكن إعتباره من قادة الفكر الشيعي بصورة محددة، إلا أن الكثير من الأوساط روجت لهذا الجانب ولا يتسنى لكاتب هذا المقال التأكيد علي هذه الحقيقة أو نفيها. لكن ما لفت نظر الكثيرين هو الحوار الذي قدمه الإعلامي الطاهر حسن التوم في برنامجه المتميز حتى تكتمل الصورة في حلقة تحت عنوان (الوجود الشيعي في السودان) والذي ضم كل من د. عبد الرحيم عمر والداعية المنتمي لجماعة أنصار السنة المحمدية د. محمد الأمين البلة والإعلامي الهادي محمد الأمين. فقد كان الحوار في الكثير من مكوناته قائماً علي مدافعة د. عبد الرحيم عن الكثير من الأفكار المرتبطة بالتيار الشيعي وإن كان ذلك بمفهوم ومنطلق ردم الهوة بين الفكر الشيعي والسني لبناء الوحدة الإسلامية التي عرف عن د. عبد الرحيم أنه من الداعين لتحقيقها. هذا بالطبع لا يضعه في خانة قادة الرأي الشيعي بالمطلق، لكن أود الإشارة إلي كثير من الجدل الذي إستمعت إليه

حول مدى إمكانية أن يكون د. عبد الرحيم هو من المدافعين عن التيار الشيعي ليس من منطلق الإنتماء ولكن من منطلق الإقتناع بالفكر الشيعي بشكل عام أو في رأي البعض أنه قد تم إستخدام توجهات الرجل بنحو يخدم بصورة أساسية أجندة المؤسسات الشيعية في السودان. علي كل حال، فقد أوردنا أسمه هنا من أجل التوضيح ورصد ما قد ورد في بعض منتديات الحوار.

رصد إستراتيجيات التشيع في السودان

لما كان الحديث في هذا المقال كثيراً عن مفهوم "المد" بإعتبار أن الفكر الشيعي يتم تشبهه كثيراً بظاهر المد التي يتمدد فيها البحر إلي أبعد من حدوده المعروفة نتيجة لعدد من العوامل، كان لابد لنا أن نتناول بشئ من التحليل الأسباب وراء هذا المد وذلك بغرض التعرف علي الإستراتيجيات التي يستخدمها الشيعة في ترويج ونشر فكرهم في السودان. سنقوم في هذا الجانب بتحليل بعض من الإستراتجيات التي قمنا برصدها في هذا الجانب، ومن المفيد أن نشير إلي ما سنورده هو تحليل لبعض الأحداث وبعض ما ورد في الإعلام علي لسان المتحدثين من شيعة السودان وليس بالضرورة أنه قد إعتمد علي وثائق محددة بعينها يمكن إيرادها كمصادر.

سنركز في حديثنا عن هذه الإستراتيجيات بالتحديد علي:

- التستر خلف محبة أهل البيت وإستغلال تركيبة وجدان المجتمع السوداني.
- التعلل بالتشابه في أساس نزعة المجتمع السوداني نحو الصوفية وتبني الحركات الدينية الإمامية المنهج.
- إستهداف شرائح محددة من المجتمع عبر وسائل وإنشطة معينة تتناسب و هذه الشرائح.
- إستخدام التقية في تغليف الدعوة في عدة أشكال للتغلب علي الصدود والمقاومة التي قد تواجهها أفكارهم.
- اللعب علي وتر أرقام الشيعة في السودان وفق مقتضى الحال.
- بالإضافة إلي وسائل وإستراتجيات أخرى نتعرض لها لاحقاً.

1. التستر خلف محبة أهل البيت وإستغلال الوجدان والعاطفة:

لعلنا لن نقدم الكثير حين نخوض كثيراً في كشف هذه الإستراتجية التي ترتبط إلي حد بعيد مع إستراتجية تسويق الأرضية المشتركة مع الصوفية (التي سنتناولها لاحقاً) حيث يدعي الشيعة بإلتقائهم مع الصوفية في حب أهل البيت والولاء لهم. في البدء وقبل أن نرد بصورة موضوعية علي هذا الأمر، دعوني أطرح بعداً شخصياً لهذه القضية. بالرغم من أنني لست متصوفاً، ومع إحترامي لكل المتصوفة بإختلاف طرقهم وإنتمائتهم، لكنني أود السؤال حول حقيقة ما يدعون به الشيعة حول ربط حب آل البيت بالتشيع، وحول كون من يحب آل البيت هو

شيعي؟ يا الله .. انا والله أحبهم حباً كبيراً، حب تقدير وإحترام لكنه ليس حب تقديس وعبادة، فهل أنا شيعي أو أتشارك مع الشيعة في شئ؟ وهل هذا من مظاهر التشيع في المجتمع؟ هذا صيدٌ في الماء العكر بلا شك. وقد أشار عدد من المهتمين بشأن الجماعات الدينية إلي أن إختيار هذا المنهاج في ربط الإرتباط الوجداني للكثير من مكونات الشعب السوداني بحب الرسول الكريم وآل بيته مع الدعوة إلي الفكر الشيعي يشير إلي وجود إستراتجية واضحة تحاول إستخدام المداخل المناسبة التي تمكنهم من التستر خلف صور مناسبة للتصيد، وهذا ما قد يفعل الثعلب حين يلبس صوف الخروف وسط قطيع من الخراف لينقض بسهولة علي فريسته مستخدماً هذا التمويه. ولعل هذه الإستراتجية تدل كذلك علي عدم إدراك المتغيرات التي حدثت في تركيبة المجتمع السوداني الذي تغير ولائه التقليدي نحو زعماء الطوائف الصوفية الذين يشيرون بإنتهاء نسبهم إلي أهل بيت النبي مثل الختمية علي سبيل المثال وغيرها، والعارف ببواطن الأمور يدري أن هذا الولاء قد تغير بلا شك خاصةً في أوساط الشباب، وإن كان حب النبي وآل بيته الأكارم ما زال في عمق وجدان المجتمع كله شيبه وشبابه.

إن إستغلال العاطفة في الدعوة نحو الفكر الشيعي هي شئ مردود وغير مقبول. فعلي سبيل المثال، التركيز علي مقتل الخليفة علي بن إبي طالب وكذلك مقتل الحسين بن علي رضوان الله عليهما، وهي قطعاً من الأحداث العظيمة في التاريخ الإسلامي، وإستخدام أحاديث رسول الله صلوات ربي وسلامه عليه حول الحسن والحسين رضوان الله عليهم وبالتالي التسويق لأهمية تبني موقف من هذين الحدثين وما مثلاه من نقاط فارقة في مسار الدين الإسلامي والمناداة بضرورة نصرة أهل البيت، لهو بالضرورة فهم خاطئ للأمور وكذلك يشبه إلي حد كبير دس السم في كوب من الشراب حين يبدو الشراب شراباً للشخص المستهدف لكن لا يتنافى ذلك مع حقيقة أنه مسموم. إن إستخدام العاطفة في إستمالة قلوب المسلمين السنة بغير هدى هو من أهم الإستراتجيات المرفوضة لي أنا علي وجه الخصوص. لم نعرف عن دعوة تحترم العقول والمنطق أنها تلجأ إلي مثل هذه الوسائل الضعيفة المضمون والفهم. فلم يستخدم سيدي رسول الله مثل هذه الوسائل في الدعوة ولم يعتمد، صلاة ربي وسلامه عليه، علي تغليف دعوته خلف ستار من العاطفة في الدعوة إلي الدين الحق بل جاء بها علي أساس المنطق المجرد حول حقيقة الإسلام والتعريف بالله عز وجل عقلاً في المقام الأول قبل الوجدان. هذه الوسيلة، والتي نجدها مترابطة مع غيرها من الإستراتجيات هي بالتأكيد شئ يدعونا للإهتمام بفهمها وفهم مدى تأثيرها في نشر الفكر الشيعي.

2. إستغلال النزعة نحو الصوفية والحركات الإمامية:

المتتبع للغة والمنهج الذي يتبناه دعاة الفكر الشيعي في السودان وخاصةً القائمين علي المؤسسات التي ترتبط بنشر الفكر الشيعي مثل رابطة سفينة النجاة، سيجدهم يركزون ويراهنون علي فكرة محددة مفادها أن الشعب السوداني في غالبيته العظمى ينتمي إلي عدة مجموعات دينية تتشارك ذات المساحة الفكرية والوجدانية مع الشيعة (اي ذات الخلفية الثقافية). وسنجد أنهم يشيرون بالتحديد إلي إنتماء أعداد كبيرة من السودانين إلي عدد من الطرق الصوفية وهو ما يتشابه في نظرهم مع طريقة المذهب الشيعي في طريقة إنتهاج الدين وتناوله، وهو بالقطع ليس صحيحاً البتة. وكذلك سنجدهم يشيرون إلي كيان الأنصار بإعتباره كيان ديني يتشارك الكثير من أوجه الشبه مع النهج الشيعي في مختلف المناحي، وهو كذلك ليس بالصحيح، فحتى لو سلمنا بصحة ذلك علي مستوى المظهر في بعض المناحي البسيطة مثل مبدأ الأمامية، فإننا نعي جيداً أن الجوهر لا يلتقي البتة من حيث المعتقد. وربطاً بهذا الأمر أذكر نقاشاً قد دار بيني وبين أحد أصدقائي وكان محور الحديث يدور عن سؤاله حول كون الختمية كجماعة هم في الأصل شيعة أم لا، ولعل المقام هنا لن يكون مقام الإجابة علي هذا السؤال، ولكن هذا الحوار يدور كثيراً في دوائر المجتمع، ولكن لا يمكن فصله من تبني الشيعة أنفسهم لهذا الأمر، أي أن الختمية ككيان هو شيعي في أصوله. ولعل الشيعة السودانين بتناولهم لهذا الإتجاه وبناء الكثير من الحديث حوله يساعدهم في التمهيد لزرع أفكارهم في عقول الفئات المستهدفة من هذه المجموعات الدينية والتصوير أن الهدف ليس هو نقل الشخص خلال مساحة كبيرة من اليمين إلي اليسار في المعتقد، وإنما هي نقلة نوعية رأسياً من مرتبة محددة إلي مرتبة أخرى أكثر رقياً في الفهم للدين وطبيعة الحياة وهي ما يعرف لديهم بالإستبصار. لعل هذه الإستراتيجية الإيحائية لا ترتبط بالشيعة فقط وإنما هي وسيلة معروفة لإستدراج الأشخاص وتحويل ولائهم من جناح إلي جناح أخر وقد عرف عن بعض أجهزة المخابرات أنها تستخدم هذه الوسيلة بشكل خاص في تجنيد الجواسيس من أبناء البلد المحدد بإيصال رسالة مشوهة بأن الشخص إنما يفعل ذلك ليحمي بلده من تهديد معين أو بإيهامه بأن الجهة التي يعمل لها هي جهة ملائكية وليست شيطانية. ولعل ما يشجع علي إستخدام هذه الإستراتجية هو طبيعة الشعب السوداني المسامحة والتي لا تجنح إلي الوقوف بصلابة تجاه مثل هذه الأمور وهو ما يساعدهم علي التمادي فيما يقومون به. ولعل التحجج بالخلفية الثقافية المشتركة ليس بالحجة القوية لمن يعرف تحديداً ما هي الخلفية التاريخية والثقافية للشعب السوداني المتعدد الثقافات والأعراق والتي يصعب الجزم بأن لها خلفية ثقافية واحدة تشترك مع الفكر الشيعي في أرضية أو مساحة فكرية واحدة. وقد أثار تحفظي عدد من الأمثلة التي إستخدمها المتحدثين في هذا المجال حيث أشاروا إلي أمثلة لا ترتقي حتى لمستوى ذكرها ونقاشها في هذا المقام بطريقة موضوعية، ناهيك بأن تكون هي بالفعل أدلة علي إستعداد المجتمع السوداني لتقبل الفكر الشيعي كما يدعون.

من المتناقضات إيضاً في هذا الطرح المقترن بالحديث عن الصوفية، أن الشيعة أنفسهم في دول أخرى يكفرون المنتمين للطرق الصوفية ويصفونهم بالجهل والرجعية. ولعل إزدواجية المعيار هذه ما بين السودان وغيره من الدول تلفت إنتباهنا إلي الترابط بين السياق المحلي للمجتمع محل الدعوة والإستراتجيات التي تستخدم للدعوة، فإذا إفترضنا أن من يقومون بالدعوة إلي الفكر الشيعي وقادتهم في السودان قاموا بالتهجم الفكري علي الصوفية والمتصوفين، والذين يمثلون جزءً مقدراً من تركيبة المجتمع السوداني، لوجودوا أنفسهم يسبحون عكس التيار، لكن ولوعيهم بضرورة إستدعاء طرح الأرضية المشتركة التي تمهد وتسهل عليهم خطابهم الدعوي، سنجد أنهم أحجموا عما يقومون به في دول أخرى من تكفير للصوفية بشكل لا خفاء فيه، وهي ملاحظة هامة يجب الإنتباه لها. وقد إقتبسنا نص تصريح أدلى به أحد المتشيعين حين رد علي السؤال بأهمية الأرضية الصوفية لنشر المذهب الشيعي قائلاً "*نعم وفرت الصوفية درجة كبيرة من الاحتضان للتشيع في البلاد، لأن الاثنين كما قلت لك يتفقان في الولاء لأهل البيت، لكن ربما هناك خلاف في وسائل تحقيق ذلك الولاء لأهل البيت*" وقال أيضاً "*إن الصوفية ثمرة التشيع أو هم فرعان لأصل واحد بل الصوفية هم الشيعة في ثوب سني، وأن السودان بلد شيعي انحرف به التيار*". بالإضافة إلي ذلك سنجد أن شيعة السودان قد بدأوا بالفعل محاولة إختراق البيوت المشهورة المنتمية لقيادات الطرق الصوفية في السودان، حيث إستهدفوا بعض من قيادات هذه الطرق الصوفية ونجحوا في ذلك لكن ليس بشكل كبير، ولعل الشواهد تدل علي أنهم إستطاعوا إختراق عدد من الطرق الصوفية في ولايات شمال كردفان والنيل الأبيض، بالإضافة إلي منطقتي جبل الأولياء وشرق النيل في ولاية الخرطوم.

3. إستهداف شرائح محددة من المجتمع عبر وسائل وإنشطة محددة:

وجدت أن هناك طريقة منهجية يتبعها الشيعة في إستهداف مختلف شرائح المجتمع السوداني وبالتالي تحديد الوسائل والأنشطة التي تتناسب مع هذه الشرائح. وهذه المنهجية في التفكير تؤكد علي وجود عمل تعبوي ودعوي مبني علي خطة واضحة، وهو ما يتناقض مع ما يروج له بعض المتشيعين في السودان من أن الدعوة إلي التشيع أساسها مبادرات فردية وأنه لا توجد مؤسسات تهتم بنشر ورعاية هذه الدعوة، لذا نقول لهم أن كلامهم هذا مردود عليهم وأن ما يحدث يدل علي إستراتيجية واضحة لتشييع أكبر قدر ممكن من السودانيين. سنقوم في عجالة بالتعريف بما هي هذه الشرائح وكيف يتم إستهدافها:

أولاً شريحة طلاب الجامعات: تتعدد الوسائل التي تستخدم مع هذه الشريحة الهامة في المجتمع، حيث أن طلاب الجامعات بصورة خاصة هم رصيد ثقافي مهم في المجتمعات، وما يتبناه طلاب الجامعات يبقى إلي حد بعيد هو المحدد للكثير من توجهات المجتمعات التي ينتمون لها خاصةً في بلد مثل السودان حيث ينطلق السودان من

عهد سيطرت فيه الأمية العلمية والدينية إلي حد بعيد إلي عهد من إنفتاح المجتمع بصورة أكبر نحو الدراسة الجامعية لأبناء الكثير من المجتمعات التي لم تعهد هذا الأمر خاصةً في المناطق النائية والتي لم تجد حظها من التنمية في الفترات الماضية. المهم هنا أن الشيعة في السودان يعرفون بالفعل أهمية هذه الشريحة ويوجهون تجاهها الكثير من الجهد لإيجاد مساحة لهم بين الطلاب. وسنجد أن الوسائل المستخدمة هي بالفعل كثيرة، علي سبيل المثال لا الحصر: (1) إستهداف بعض الطلاب وفق معايير لا ندري ما هي علي وجه التحديد، لكن علي أساسها يتم التواصل مع هؤلاء الطلاب بمختلف السبل ويتم تقديم الكثير من المغريات في مقدمتها منح للدراسات العليا خارج السودان وبصفة خاصة في إيران والعراق وسوريا، وكاتب هذا الكلمات شاهد علي هذه الممارسة وقد عرضت عليه الدراسات العليا بعد الإنتهاء من الجامعة في إيران لكن من الواضح أنني قد رفضت هذا العرض (2) إقامة دروس ومحاضرات في المعاهد والمراكز التابعة لهم في الخرطوم، مثل معهد الإمام، ومن ثم يتم تأهيلهم لمنحهم فرص دراسات دينية في إيران، (3) الترويج، عبر النشرات والمخاطبات العامة وغيرها، عن الأرضية المشتركة بين الحركات الإسلامية في أنحاء العالم ومحاولة ربط التوجه الإسلامي في السودان بمبادئ الثورة الإسلامية الإيرانية والتبشير بنجاح هذه الثورة، وإن كانت هذه الإستراتيجية قد كانت رائجة بصورة أكبر في ثمانينات وتسعينات القرن الماضي أكثر منها في الفترة التي تلت ذلك، وقد تناولنا هذه الملاحظة في محور سابق، (4) إستخدام مغريات مختلفة مثل المال، إباحة زواج المتعة والزواج العرفي في أوساط الطلاب بإيهامهم بعدد من المفاهيم المبنية علي معتقدات الشيعة وغيرها من المغريات المادية الطابع، (5) تقديم مساعدات متمثل في توفير السكن عبر بعض المؤسسات في بيوت الطلاب، وغير ذلك كله وفق ما إقتضت الحوجة والضرورة.

ثانياً الشرائح المجتمعية الفقيرة مادياً: سلاح المال وإستخدامه في الدعوة إلي العقائد والأفكار لم ولن يكون حجراً فقط علي الشيعة في السودان أو غيره، فقد عرف تاريخاً عن عدد من الحركات والمنظمات في مختلف دول العالم إستخدامها للترغيب المادي في الدعوة إلي أفكار أو عقائد معينة، لكن الشيعة بشكل خاص قد لجأوا إلي إستخدام هذه الوسيلة في بعض المجتمعات وفي بعض المناطق النائية في السودان وقد رُويت الكثير من الروايات في هذا الإطار، لكن ليس لدينا أدلة فعلية علي هذا الأمر لكن هذا لا ينفي حدوثه بالضرورة، وحين نقول الشرائح الفقيرة مادياً فنحن نتحدث عن مجتمعات هي بالفعل بحوجة إلي الدعم المالي مما يشير إلي قصور نظام توزيع الزكاة في البلاد والذي يجب أن يتم ربطه بمحاربة مثل هذه الإستراتجيات، لكن في ذات الوقت الفقر لا يكون مادياً فقط وإنما هناك أيضاً فقر النفوس وهو أسوأ بكثير. وقد أشار البعض من المدونين علي صفحات مواقع التواصل الإجتماعي علي شبكة الإنترنت، والعهدة في ذلك علي الراوي ،أن بعض المؤسسات الشيعية قد قامت بالفعل بإستخدام المال لشراء ذمم عدد من قادة الرأي الديني والفكري والإعلامي في عدد من

المجالات في السودان. أقر مجدداً بعدم وجود أي أدلة نمتلكها علي ذلك ، ولن نعمم الحديث حتى لا يكون الحديث عن هذه الشرائح الهامة في المجتمع بشكل أعمى وعلي غير هدى، لكن في ذات الوقت يجب أن نقر أن ضعيفي العقيدة والنفوس هم موجودون في كل زمان ومكان، فيا ربي إعصمنا جميعاً من مثل هذه الفتن.

ثالثاً هواة الثقافة والفكر: الشعب السوداني بطبعه شعب فيه درجة عالية من الثقافة، وإن كنا قد بدأنا نشهد ضعفاً في هذا الجانب، إلا أنه من المعروف نزعة الكثير من أفراد الشعب السوداني نحو الإطلاع وقراءة الكتب وبصورة خاصة الكتب الفلسفية الطابع. هذا الباب أدركته الدوائر الشيعية في السودان وقد حاولت بالفعل الدفع بالكثير من أوعية المعلومات وبصورة خاصة الكتب الخاصة بهم وبأفكارهم إلي أسواق السودان ومكتباته، وما حدث في العام 2006م في معرض الكتاب الدولي في الخرطوم هو خير شاهد علي هذا الأمر. وتشير بعض التقارير الرسمية عن مصادرة ما يربو عن 8 مليون كتاب في مختلف المجالات تنتمي للفكر الشيعي في السنوات ما بين عامي 2006 و 2013م وهو رقم كبير بالتأكيد. وقد لعبت المستشارية الثقافية الإيرانية في هذا الأمر الدور الكبير، وهو ما لا يخفى علي أحد. وقد قدم صديق لي تحليلاً منهيجاً لمحتويات عدد من هذه الكتب ووجد أنها تستهدف بشكل خاص المنتمين للمدارس الفكرية اليسارية التوجه حيث يجد الفكر الشيعي سهولة في إستمالتهم نحو أراء بالتركيز علي قضايا محددة إعتماداً علي مبدأ تحرر الفكر من الأخلاق العقائدية المقيدة خاصة فيما يلي الحكم علي القضايا الخلافية في العقيدة والشرع وكذلك تحت شعار حرية الرأي والتي هي بالضرورة كذبة كبيرة للعارف بكيفية جريان الأمور في شئون الدين والسياسة في البيت الشيعي بشكل عام.

رابعاً قادة الرأي العام: المتتبع للوضع في السودان سيلاحظ أن هذه الشريحة قد بدأت بالفعل في السنوات الأخيرة تدخل في حيز إهتمام دوائر قادة نشر التيار الشيعي في السودان وذلك لإدراكهم بمدى أهميتهم في قلب مجتمع مثقف ومطلع مثل المجتمع السوداني. فقد تناولت العديد من دوائر الحوار بصورة عامة، وبصورة خاصة في أوساط الصحفيين السودانيين، مبادرة تقديم عدد من الدعوات لبعض الصحفيين الذي ينتمون لعدد من الصحف السودانية وبعضهم ممن هم في بدايات مسيرتهم المهنية الصحفية، وقد أتت هذه الدعوات في شكل برامج تدريبية لفترات متوسطة المدى في إيران. وقد إستنكر العديد من الصحفيين هذا الإتجاه بإعتباره لا يخفى علي عاقل ما قد يكون هذا الأمر وما قد يترتب عليه. ساترك المجال لأصحاب البيت الصحفي لتحليل هذا الأمر ومدى إنعكاسه علي المسار الصحفي المهني لهولاء الصحفيين وكذلك تأثير ذلك علي المجتمع.

خامساً المنتمين للطرق الصوفية: لعلنا لن نسهب في هذا الأمر فقد أوردنا فيه عدد من المحاور التي تحدثنا عنها في جزء أخر من هذا المقال، ولعلك عزيزي القارئ ستكون قد مررت علي هذا سابقاً، وإن كنا نود أن نضيف إلي ما أوردناه إستدافهم بشكل خاص لطلاب الخلاوى في عدد من مناطق السودان وتحت مسميات مختلفة.

سادساً عامة المجتمع: في البدء يجب أن نشير إلي أن هناك توجه ضعيف نحو نشر الفكر الشيعي في المجتمع بشكل عام ولا يتم التركيز علي عامة الناس بصورة أساسية في أنشطتهم الدعوية ونحمد الله علي ذلك، وإن كان ذلك لا يجب أن يجعلنا نستكين ونأمن هذا الجانب. وقد بدأت بعض الأنشطة التي لا تستهدف بالضرورة الفئات التي تحدثنا عنها سابقاً بالظهور بشكل محدود متمثلة في بعض الندوات التي تقيمها مستشاريات السفارة الإيرانية من وقت إلي اخر وكذلك بعض المسابقات التي تنظم في مختلف المجالات، وكذلك بتوسيع الرقعة التي تغطيها ما يعرف بالحسينيات التي يجتمع فيها المنتمين للفكر الشيعي.

4. التقية كأستراتجية لحماية ونشر المذهب:

سنبدأ أولاً بتعريف سريع ومختصر حول ما هي التقية ومفهومها، وسيكون من المفيد لك عزيزي القارئ أن تطلع علي بعض المقالات أو المصادر حول هذا الموضوع إن لم تكن علي دراية كافية عنه، وما سأقدمه في هذا الجزء من المفهوم هو في الأساس منقول عن بعض من المصادر الأخرى.

التقية هي أن تظهر عكس ما تبطن أو أن تقول عكس الحقيقة، وهي جائزة في الضرورة حين تخاف على نفسك من القتل إن قلت أنك مسلم، وهذا قطعاً لا يمثل نقطة إختلاف حتى عند المسلمين السنة. أما لدى الشيعة سنجد أن عقيدة التقية هي من العقائد التي خالفوا فيها أهل السنة. وتحتل التقية منزلة عظيمة ومكانة رفيعة في عقيدة الشيعة، وقد دلت عليها روايات عديدة في مختلف مصادرهم الفقهية. فقد روى الكليني وغيره كذباً عن جعفر الصادق أنه قال: (التقية هي ديني ودين آبائي ولا إيمان لمن لا تقية له)، ويؤمنون كذلك بأنه قال: (إن تسعة أعشار الدين في التقية، ولا دين لمن لا تقية له). وخطورة التقية في علاقة الشيعة مع أهل السنة، أنهم يوهموا أهل السنة بأنهم موحدين محبين لنبيهم وآله وصحابته وأزواجه وهم في الحقيقة يكنون عكس ذلك، والهدف ليس خوفاً على أنفسهم فقط، بل خوف قادتهم من دعوة أهل السنة لعوامهم إلى دين الحق ودفعهم إلى البحث عن الحقيقة التي لو بحثوا عنها لعادوا بكل قوة إلى جادة الصواب. لذا سنجد أن هذا المبدأ، وبما أنه ليس بمبدأ خاص بشيعة السودان فقط، فإنه يستخدم بإعتباره من أهم إستراتيجيات صمود دعوتهم ونشرها في السر. لذلك لن نهتم بها بصورة خاصة لتفصيل كيفية تطبيقها في سياق المجتمع السوداني بقدر ما أننا أردنا الإشارة إليها بإعتبارها من أسس نشر الفكر الشيعي، لكن في ذات الوقت تشير الكثير من الروايات أن قادة الشيعة في السودان وتحت مبدأ التقية، يبدأون في العادة مسيرتهم بإعتبارهم من رجالات الطرق الصوفية ويمارسون عباداتهم على نطاق ضيق، ويسرون أرائهم عن عامة الناس، ويمارسون تبليغ عقيدتهم من وراء حجاب التصوف، وهذا كله بالطبع شئ مهم يجب الإنتباه له.

5. اللعب علي وتر الأرقام:

كنا قد تناولنا التفاوت والتضارب الواضح في الأعداد الحقيقية للشيعة في السودان. وما هو أكيد أن السودان ليس بإستثناء في هذا الباب حيث أنه بخلاف إيران، العراق والبحرين سنجد أن تحديد الأعداد الحقيقية للشيعة يظل أحد أكبر الألغاز. علي كل حال، من خلال اللغة التي لمسناه في تحدث الشيعة أنفسهم حول وجودهم، وجدنا أن هناك إتساق كبير ما بين السياق الذي يأتي فيه الحديث عن أعداد الشيعة وبين الجهر بهذه المعلومات. فعلي سبيل المثال رصدنا تعليقين متناقضين لأحد المتشيعين في السودان في مقامين مختلفين حيث وجدنا أنه قد قال نصاً في حوار إعلامي أن "*عدد الشيعة في السودان ليس بالكثير كما هو مصور في الإعلام ... وواصل مؤكداً .... بصعوبة إيجاد رقم محدد للشيعة في السودان، لأن عملهم لا يتم عبر تنظيم وإنما مبادرات شخصية*". ذات الشخص وفي حوار اخر في أحد المنتديات علي الشبكة الإلكترونية جادل بعض الأشخاص بأن "*أعداد الشيعة في السودان كبيرة للغاية وأن لديهم إحصائيات تشير إلي أنهم يفوقون المليون شيعي، وقال إن الشيعة في السودان لديهم ارتباطات بالشيعة أينما وجدوا* ". هذا التراوح في التصريح عن الأعداد هو إستراتجية تمويهية ترتبط بسياقين، الأول فيهما يرتبط بمفهوم سرية الدعوة للتشيع ومفهوم التقية حيث يعملون علي نشر الدعوة سراً حتى يتمكنوا من نشرها وسط أكبر مجموعة ممكنة دون الشعور بهم، والسياق الثاني مرتبط بإستعمال الأعداد كوسيلة للدعوة حين يقوم الشيعة أنفسهم بالترويج إلي أن أعدادهم كبيرة وأن الكثيرين قد سبقوا الشخص المدعو للإنضمام للجماعة وبالتالي إيصال مفهوم "لست وحدك ... أو بالدارجية السودانية .... إنت ما براك" وهي عملية تحفيزية تدعو الشخص المستهدف بالدعوة إلي التفكر في هذا الجانب وأن الطريق قد مر عليه قبله اخرون. لعله من المهم أن لا نقلل من تواجد الشيعة في السودان من حيث العدد لأن وجودهم واقع واضح الملامح، وأنا شخصياً أعرف العشرات منهم ممن حملوا هذا التيار، لكن في ذات الوقت يجب التنبيه إلي عدم الإنسياق وراء ما يحاولون هم أنفسهم في بعض الأحيان أن يروجوا له بأنهم مجموعة كبيرة وذات وزن في المجتمع السوداني.

6. بعض الملاحظات الاخرى:

هناك عدد من الإستراتجيات المختلفة التي درج الشيعة علي الإعتماد عليها في سعيهم لنشر فكرهم وهي ليست بالضرورة مرتبطة بفئات محددة أو لأغراض محددة، لكنهم يستعملونها متى ما كان ذلك مناسباً.

- من هذه الإستراتجيات الدعوة المضللة بإستمرار إلي توحيد الأمة الإسلامية وعدم دعم الفرقة بين مذاهب المسلمين، وهذه الإستراتيجية ليست حصراً علي السودان فقط. فبعد تحليلي لعدد من المبادرات التي تمت

في القرن الماضي في هذا الإتجاه وجدت أن المبادرات التي ظهرت في هذا الأمر قد نبعت كلها ممن ينتمون بالأساس إلي الفكر الشيعي بصورة محددة. ولعل أشهرها مبادرة محمد حسين الطباطبائي وهو من مفكري الشيعة في العام 1945م بالسعي نحو إجراء دراسة مستفيضة عن أهم نقاط الاختلاف بين المجادلين الشيعة والسنة، وقد إنتهت الدراسة إلي أن الإختلافات بين الشيعة والسنة هي سياسية أكثر من كونها إختلافات دينية. ولكن حين بدأ السعي نحو الحوار كان لتمسك الشيعة ببعض المبادي العقائدية الأساسية بالنسبة لهم الأثر الكبير في عدم إستمرار الحوار بسبب أشياء معلومة بالضرورة. لكن ما لا يجب أن يفوتنا في هذا الأمر هو ليس المبادرة ونتائجها ولكن توقيت حدوثها والمناخ الذي حدثت فيه، فقد تم إستغلال هذه المبادرة في وقت بدأت فيه إيران المحاولة في إستعادة نفوذها في منطقة الشرق الأوسط وقد وجدت هذه المبادرة التي سعت للحوار مع قادة الرأي الديني عبر الأزهر في مصر وبإستعمالها كأستراتجية لهذا الأمر. التاريخ يكاد يعيد نفسه حين نجد أن الشيعة في السودان وعدد اخر من الدول مثل اليمن وغيرهما قد بدأوا باللجوء إلي ذات الأمر ولذات الهدف الساعي إلي إيجاد مناخ مؤاتي لنشر الفكر الشيعي المرتبط في الأساس بأهداف سياسية بحتة.

- من الملاحظات العامة للدعوة نحو تبني الفكر الشيعي أنه كثيراً ما يتم التركيز علي أن التشيع لا يهدف إلي تحويل إنتماء المتشيعين عن أوطانهم نحو دول أخرى مثل إيران أو العراق مثلاً. وهذا جزء من سياسة طمأنة الشخص أو الفئات المستهدفة بغرض زرع الثقة ونفي عدد من التخوفات التي قد ترد إلي أذهانهم. وهذا القول مردود لإتجاهين أولهما أن المد الشيعي له أسباب عالمية عبر وجود دول داعمة للتشيع وتقوم بتبنيه وبالتالي أثبتت التجارب أو ولاء كثير من الأفراد يكون لهذه الدول في نهاية المطاف، وثانيهما أن أزمة سوريا في الفترة التي تلت العام 2011م قد كشفت وجوه الشيعة الحقيقية حين يقولون أن إنتماء الشيعي للأوطان وللعقيدة، حيث تداعى الشيعة من كافة بقاع الأرض للقتال إلي جانب شيعتهم من العلويين السوريين وحزب الله اللبناني.
- من الإستراتيجيات التي لاحظنا إستخدامها بكثرة من قبل المتشيعين في السودان إشارتهم بشكل دائم إلي أن لديهم مناخ ملائم لممارسة شعائرهم بحرية وبدون مضايقة من الدولة والمجتمع. ففي جل الحوارات التي أجريت مع المتشيعين السودانيين يؤكدون على الدوام أنه لم يحدث أن مستهم السلطة بسوء ولم يضايقهم المجتمع في أي من مظاهر وجودهم، وإن صح هذا الأمر أو كان مجرد إدعاء هو كذلك وسيلة يتم إستخدامها للإيحاء بأن كل شئ علي ما يرام ويسير بصورة يسيرة ودون عوائق وأنه ليس هناك ما يمكن أن يمثل قلقاً للمتشيع السودان في ظل وجوده في السودان.

- في الفترة الاخيرة بدأنا نرصد أن الشيعة في السودان بدأوا يهتمون بضرورة ذكرهم في صدارة الأخبار ووسائل الإعلام بصورة دورية وإن كان ذلك علي فترات متقطعة. وهي إستراتيجية تسويقية ودعائية واضحة ومعروفة لن تخفى علي أي شخص له دراية بأساسيات عملية التسويق الدعائي للمؤسسات بشكل خاص، حيث أن إستدامة ذكرك في الإعلام ولو بشكل مبسط يجعل المتلقي يتذكر وجودك بإستمرار، وعلي سبيل شرح المفهوم فحين تقوم شركات مثل بيبسي أو كوكاكولا بالدعاية لمشروباتها، يكون السؤال هل من البشر لا يعلم مشروباتها؟ لكن الفكرة قائمة علي التذكير بوجودك بإستمرار في الساحة، وبعد إستثارة عملية التذكر هذه يتركون الباقي للوسائل الاخرى الموجهة بشكل محدد نحو شرائح المجتمع كما ذكرنا ذلك سابقاً.

ختاماً في هذا الجانب، لن يكون من الخافي علي أحد أن كل هذا التخطيط وكل هذا الجهد الذي يتم لابد من أن تتوفر له عدة عوامل أساسية تساعد في تنفيذه بشكل كبير وهي:

1. البيئة الكلية في السودان متمثلة في عدة عوامل مثل (أ) العوامل المرتبطة بالمناخ السياسي الحالي وسنقوم بنتناول ذلك لاحقاً، وأيضاً (ب) طبيعة وتركيبة المجتمع السوداني وكذلك (ت) هيكلة وشكل إستجابة الدولة والمجتمع لما يحدث في هذا الأمر.
2. لا بد من أنه توجد مؤسسات تقف وراء هذا العمل وقيادات لها قدرة علي التخطيط والتنفيذ وأن يكون لهذه المؤسسات وجود فعلي علي أرض الواقع.
3. هذا الجهد يحتاج إلي تمويل مقدر يتعدى حدود الأفراد كما يروج الشيعة أنفسهم إلي تمويل تقف ورائه مؤسسات هي بالأساس خارج السودان وإن كان لها وجود في السودان.

كيف نحتوي المد الشيعي في السودان؟

في هذا الجزء الأخير من المقال سنسعى سوياً عزيزي القارئ لنتناول بعض المحاور العامة التي يمكن أن تدعم إستراتيجيات مجابهة المد الشيعي في السودان. وسيكون من المفيد أن تنطلق أنشطة هذه الإستراتيجية من فهمنا للوسائل والسبل التي ينفذها الشيعة في السودان، وهذا ما قد تناوله الجزء السابق من المقال، وذلك عملاً بمفهوم "داوني بالتي كانت هي الداءُ". علي أن هناك قضايا اخرى إستراتيجية الطابع هي التي يمكن أن تشكل عوامل النجاح لكل ما يمكن أن نقوم به تجاه إيقاف هذه الفتنة التي تستهدف ديننا وعقيدتنا.

البيئة والمناخ السياسيين:

في البدء كنا قد أشرنا سابقاً وفي عجالة إلي كون البيئة السياسية الحالية قد تكون أسهمت بشكل مباشر أو غير مباشر، وإن كان ذلك غير مقصوداً بالضرورة، في توفير مناخ مناسب للمتشيعين في السودان في نشر فكرهم ودعوتهم. ولعلي المجال هنا ليس مجال الحديث عن الشأن السياسي فسندعه لأصحاب المقال فيه، لكنه بالتأكيد جانب هام من الجوانب التي ستؤثر علي أي نشاط لكبح جماح التمدد الشيعي في السودان. كاتب هذه السطور يعي جيداً البعد السياسي للعلاقات مع ايران وأهميته في ظل هذه المرحلة من تاريخ السودان. ونترك لاهل السياسة هذا المضمار، ولست بناقد سياسي كي أتحدث عن كل الأبعاد المختلفة للقضية، لكن أود أن اؤكد علي مبدأ هام جداً يجب أن يحكم هذه العلاقات السياسية وهذا المبدأ قائم علي أن لا تساعد هذه العلاقات السياسية في التعدي علي أساسيات الدين والعقيدة وبأي شكل من الاشكال. نحن هنا لسنا بصدد توجيه الإتهام لأن للسياسة دروبها، فما قد يكون بادياً للعيان من توائم وإنسجام لا يعكس بالضرورة ما في النفوس، فالسياسة تحكمها مصالح الدول ومن مصلحة السودان البقاء في معسكر الإسلام السني بشكل كبير، فكل مؤشرات الصراع في المنطقة تدل علي أنه سيأتي وقت سيركع فيه الإسلام السياسي الشيعي ولن يصبح قوة أقليمية كما يتخيل من هم ورائه. وأود أن أوكد مرة أخرى أن المقام ليس مقام إتهام وإنما نتحدث عن مبادئ ننطلق منها جميعاً. فالمسئولية التي تحملها الحكومة تجاه الشعب وتجاه الدين كبيرة وعلي قدر خطير، حيث أنها تحدد حدود مساحات الحراك السياسي بحيث يجعل الحكومة في حوجة للتحرك في أكثر من بعد سياسياً، إقتصادياً وكذلك ثقافياً. كاتب هذه السطور علي ثقة من وجود من يعي هذا المبدأ جداً ويقف عليه، وإن كان بمفهوم اخر أو بإختلاف في المنظور، لكن ما يجب أن يتفق عليه قادة السياسة وقادة الرأي والمجتمع بشكل عام أن من ثوابت الأمة السودانية المحافظة علي العقيدة الإسلامية الصحيحة كمصلحة إستراتيجية تخدمها علاقاتنا الدبلوماسية في مختلف أشكالها. والعارف بمفهوم الدبلوماسية وسبلها يجب أن يعي حساسية المواقف الدبلوماسية الرسمية تجاه بعض القضايا

الخلافية في بعض الأحيان، لكن في ذات الوقت نذكر بقول الله تعالي في أساسيات الدبلوماسية المرتبطة بالدين والذي أتى في سورة البقرة (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) صدق الله العظيم، ولا مقال بعد قوله عز وجل.

الخطاب الديني السني في السودان:

لعله من الجميل ذكر المؤتمر الذي تم تنظيمه في العام 2013م والذي كان محوره بشكل أساسي تناول الوجود والمد الشيعي في السوداني والذي تناول حقيقة وجوده وكيفية التعامل معه. وكانت هذه بادرة طيبة من جماعة أنصار السنة المحمدية في تنظيم هذا المؤتمر الذي ضم كثير من التيارات الإسلامية بخلاف الجماعة وهو ما مثل مساحة طيبة للتفاؤل بشأن وحدة الصف السني في السودان. لم أكن من حضور المؤتمر، لكن قرأت عنه الكثير ومنيت نفسي أن يكون أحد أهم مخرجات المؤتمر هو ضرورة تطوير الخطاب الديني السني في السودان، وحين نتحدث عن الخطاب فإننا نشير إلي الخطاب المسموع، المرئي والمقروء، والذي سنشير له في هذا السياق بالخطاب الديني. الخطاب الديني يجب أن يعي في المقام الأول هذا التحدي القائم في المجتمع لمحاربة هذه الفتنة التي بدأت طل برأسها سواء علي مستوى الأفراد أو علي مستوى المجتمع ككل. ولعلنا بدأنا نشهد بعض المظاهر التي تدل علي أن موضوع المد الشيعي بدأ يجد حظه من الإهتمام في وسائل الإعلام. وبإعتقادي أن من المبادئ التي يجب أن ينطلق منها تنظيم هذا الخطاب ما يلي:

1. ضرورة صياغة الإنتاج الفكري في الخطاب الديني بشئ من التفصيل الذي يستهدف شرائح مختلفة ومحددة من المجتمع بذات المنهجية التي يتبعها الشيعة في السودان، وقد قمنا بالمرور علي ذلك سابقاً. حيث سيكون من الضرورة بمكان أن يكون الخطاب الديني قائماً علي توضيح الأمور التي يتصيدها الشيعة في دعوتهم، وبما انني لست من اهل العلم في هذا المضمار فاتركه لغيري لكي يبحثوا فيه، لكن ما ننادي به أن تقوم المؤسسات المعنية بشئون الدعوة بكافة أطيافها وبمختلف توجهاتها بالتركيز علي قضايا معينة وبتوجيه الخطاب نحو طلاب الجامعات بشكل خاصة بإعتبارهم أولوية، خاصةً طلاب المستويين الاول والثاني.
2. الخطاب الديني يجب أن يتضمن فهم واضح لما قد يأتي به البعض فيما يلي الحرية الفردية في الرأي والمعتقد، وقد تناولنا ذلك سابقاً بكون أن المساحة ما بين حرية المعتقد وما بين السماح لعقيدة تتنافى مع عقيدة أهل السنة في السودان مساحة كبيرة للغاية ولا يجب أن تكون زريعة لإضعاف الحجة في خطاب أهل السنة تجاه معتقدات المتشيعين. ومبدأنا في هذا الأمر واضح لا لبس فيه أن حرية الرأي والمعتقد لا

تعني الطعن في ثوابت الأمة ولا وحدتها أو إستقرارها، فللحريات حدود لا يجب أن تتعداها، وهذا شيء متعارف عليه في جميع العالم.

3. ربطاً بالنقطة السابقة، وكي لا يقع مقدمو الخطاب في جدال لا طائل منه، يجب أن يبتعد الخطاب الديني بشكل تام عن النظرة التكفيرية للاخر ايان كان معتقده، وهو بما لا شك فيه أحد سلبيات الخطاب الديني للبعض ممن ينتمون للفكر السني، وإن كان ذلك بشكل محدود. التكفير في العقيدة يحكم عليه رب العالمين فهو العليم بما في ضمائر البشر وليس لأحد القطع بكفر شخص وإن كان ذلك واضحٌ وبين للعقل والعين. بقولنا ذلك لا ننفي بأن البعض ممن يحسبون علي أمة المسلمين اليوم هم بالتأكيد أصحاب عقيدة فاسدة ولكن فلندع ذلك لرب الخلق، ولنركز علي مفهوم بسيط قائم علي قوله سبحانه وتعالي (ولتكن منكم أمة يدعون إلي الخير يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) صدق الله العظيم.
4. الخطاب الديني يجب أن يعي جيداً أن المد الشيعي يحاول أن يستغل الطبيعة المتسامحة للشعب السوداني والمتمثلة في عدم التصدي لما يقدمه الفكر الشيعي من عقيدة فاسدة تضر بالأساس الديني للمجتمع علي مستوى الأفراد أولاً، وهي فتنة الدين والتي هي أخطر الفتن كما أخبرنا رسول الله صلي الله عليه وسلم، ولكنها في ذات الوقت تمثل تهديداً لإستقرار هذا المجتمع، والشواهد علي ذلك كثيرة في دول أخرى مرت بهذه التجربة. فتوعية المجتمع بهذا المخاطر علي المستويين الفردي والكلي يجب أن تكون من أساسيات الخطاب الديني.
5. الخطاب الديني في توجهه الكلي يجب أن يراعي التحديات الكبيرة التي يواجهها المجتمع في الوقت الحالي وبصورة خاصة الشباب في كل فئاتهم، فمع الأسف نجد أن الخطاب الديني الذي يقدمه العديد من المفكرين يميل إلي النمطية في التفكير وكذلك الحذر في الطرح بما لا يتناسب وتطلعات الناس بشكل كبير والذين يرغبون في خطاب يطرح وبشكل صريح كيفية تجاوز هذه التحديات بدل الحديث عن هذا التحديات وأسبابها وإلقاء اللوم علي الناس في أنهم هم السبب فيما يحدث لهم وغيره من المحاور النمطية والتقليدية في الخطاب وإدارة الحوار، وبالتالي لا يقدم هذا الطرح الشئ المفيد لمتلقي الخطاب. فالمتتبع للخطاب الشيعي يجد أنه يلامس في الكثير من الأحيان قضايا جوهرية في المجتمع ويقدم مبادرات للحلول إتفقنا معها أو إختلفنا من حيث المنهجية والمرجعية، لكن ليس هذا هو المهم، فالمهم أنه ينظر إلي الحل وليس المشكلة ويحاول التعامل بإيجابية الطرح بدل الركون إلي سلبية سياق المشكلة أو التحدي. وهذا الأمر يشير أيضاً إلي أهمية النقض الذاتي المستمر لمحتوى ومنهجية الخطاب الديني السني والذي يعود بالنفع علي تطوير هذا الخطاب وبالتالي الإستفادة منه في معالجة قضايا المجتمع.

6. الحديث عن الخطاب الديني السني لا ينفصل عن قضية التعليم الديني بشكل عام حيث أنه قناة مهمة من قنوات الخطاب الديني. التركيز علي الرسائل التي تدعم وعي أبنائنا حول تحديات المسلمين اليوم في كل المجالات وخاصة تلك المتعلقة بالعقيدة الصحيحة هو بلا شك محور أساسي يجب التركيز عليه في التعليم الديني في كل قنواته سواءً عبر التعليم النظامي في المدارس أو التعليم الديني في الخلاوى والمعاهد الدينية المتخصصة. وفي ذات الوقت فإن توجه الدولة لمحاصرة المدارس التي تسعى إلي بث الفكر الشيعي يجب إغلاقها علي الفور وبلا تأخير لأي سبب من الأسباب. فعلي حد علمي المتواضع أن السلطات الإيرانية لا تسمح لأي من المدارس بتعليم المذاهب السنية في أي من المؤسسات التعليمية، كما أنها تمنع الدراسة باللغة العربية وكذلك تدريس علوم القرآن الكريم. وهذا يجعلنا مرة أخرى نلتفت إلي قضية الحريات التي قد يأتي علينا أحدهم بإلقائها علينا دون فهم لحقيقة ما يحدث بصورة عامة.
7. بالإضافة إلي تفصيل الخطاب الديني بصورة تتلائم مع إحتياجات كل شريحة من الشرائح التي يستهدفها الخطاب الشيعي بصورة خاصة، فإننا نود التذكير بأن الخطاب الشيعي مازال ضعيفاً نحو عامة أفراد المجتمع هو نقطة ضعف كبيرة يجب إستغلالها جيداً. فمهما كان للفكر الشيعي من نجاح في إستقطاب البعض فسيبقى للمجتمع بشكل عام دور كبير في مجابهة الفكر الشيعي برفض عامة الناس له وهذا في حد ذاته من عوامل القوة في المجتمع السني في السودان ونحمد الله عليها. وأود التأكيد علي أننا وبحمد لله ما زلنا في عافية من هذا الفكر الشيعي بشكل كلي، ولكن ذلك لا يجب أن يجعلنا نركن إلي الحال القائم الأن، فيمكن أن تنقلب الأوضاع بسرعة إن لم نكن يقظين وحذرين لهذا الجانب.

وحدة الصف:

من العوامل المهمة والحرجة للغاية في هذا الشأن الذي نحن بصدده هو أهمية وحدة الصف الداخلي لأهل السنة في السودان. فما نأسف له حقاً أن النزاعات بين مختلف المجموعات الفكرية لأهل السنة هو العامل الأساس الذي يجعلنا إستجابتنا لمثل هذه التحديات ضعيفاً ولا يرتقي لمستوى التحدي الذي نواجهه. فالإنشغال بالصراعات الداخلية والمصالح الفردية أو مصالح الجماعات يحول بيننا وبين التركيز علي قضايا جوهرية وإستراتجية لبقائنا كأمة واحدة وهذه القضايا بالتأكيد مسئولية جماعية وليست فقط مسئولية قيادة الدولة أو قادة المجتمع وإنما تأتي بمفهوم (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) فيمكننا الحديث طويلاً عن مسئولية كل مستوى في المجتمع وهو ما قد يطول وليس هذا بمقامه، ويمكننا أن نصل بذلك إلي مستوى الأسرة وما يمكن أن تكون عليه مسئولية الأب والأم تجاه أبنائهم في شأن التصدي للمد الشيعي. ولعل هذا الأمر كان أحد دوافعي الأساسي

لكتابة هذا المقال. وأذكر فيما ما ورد عن المحاور التي ناقشها المؤتمر الذي أشرنا إليه الذي ناقش شكل الوجود الشيعي في السودان تأكيد المؤتمر علي أن الأمن الفكري مسؤولية مجتمعية وركز الجميع علي أهمية هذا الأمر في التصدي لهذا التحدي.

جانب من المؤتمر الذي أشرنا إليه

ولعل ما أثلج صدري بصورة كبيرة لا تسعني الكلمات لوصفها أنني قد وجدت أثناء مراجعتي لردود الفعل حول النشاط الشيعي في السودان، وجدت هجوماً شرساً قابل الوجود الشيعي في السودان بغض النظر عن حجمه وأنشطته، كما وجدت سخطاً كبيراً وهجوماً محترم الشكل والموضوع علي الوجود الشيعي في السودان. فاللغة التي يتحدث بها أغلب الناس ولا أقول كلهم كان الغالب عليها الرفض شكلاً ومضموناً لهذا الوجود وأنشطته والتركيز علي قضايا كثيرة ناقشناها في هذا المقال. وهو بالفعل نعمة كبيرة نحمد الله عز وجل عليها كثيراً ونسأله عز وجل أن يديمها علينا في مجتمعنا السوداني وغيرها من المجتمعات الإسلامية.

هذا الأمر يدعونا أن نركز علي ضرورة فهم القيادة السياسية، وليس فقط في الحكومة، ولكن أيضاً في أحزاب المعارضة وغيرها من المؤسسات السياسية المجتمعية، لرغبة الشعب والمجتمع في هذا الأمر. فالمجتمع يرغب أن يرى قياداته تعمل علي ترجمة رفضه للوجود والنشاط الشيعي في السودان إلي مواقف وسياسات واضحة يكون لها صدى في المجتمع، بمعنى اخر أن تكون هناك رؤية واضحة وعمل فعلي ينبع من إرادة سياسية أساسها إرادة المجتمع، وهذا محور مهم في بناء وحدة الصف وكذلك في تحقيق مبدأ ومفهوم (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته). وقد تحدثنا كذلك عن دور الإعلام بشكل عام والصحافة بشكل خاص وعن دورها المحوري في هذا المجال. فالصحافة تأتي علي ذات القدر من الأهمية مع الإرادة السياسية في الدولة. وكما قلت سابقاً أثق في قدرة البيت الصحفي في ترتيب نفسه ذاتياً في هذا المجال، خاصةً وأن المهنة الصحفية تتميز بقدرة كبيرة علي إستخدام مفهوم التغذية الراجعة السلبية في تثبيط كل من يجنح عن الطريق من الصحفيين وأصحاب القلم

والرأي. وأستأذن الأخ جمال عرفة في مقولة لها في أحد مقالته حول الوجود الشيعي في السودان حين تحدث عن دور الصحفيين، إذ قال "*يجب على الوسط الصحفي أن يجري عملية نظافة لصفوفه من الذين يتاجرون بقضية السودان وأمنه الخارجي*". ولنأمل أن يلعب قادة السياسة والرأي الدور الكبير في تحقيق وحدة الصف تجاه هذا التمدد الشيعي.

لعله من الأهمية بمكان في هذا المقام أن نعي الدور الذي يلعبه المنادون بوحدة الصف الإسلامي للسنة والشيعة علي مستوى العالم ومن يسوقون لهذا المفهوم أنهم بلا شك يخدمون الشيعة في تسويق هذه الإستراتيجية التي تهدف بشكل أساسي في خدمة الأهداف السياسية لنشر الفكر الشيعي وإن كانوا يتخذون الغطاء الديني كوسيلة لحجب هذه الأهداف عن الانظار. فدعاة الوحدة بين السنة والشيعة ينطلق الكثير منهم من نوايا طيبة ولا شك في ذلك فوحدة المسلمين بلا شك هم كبير يجب أن نعمل علي تحقيقه، لكن في ذات الوقت يجب أن نفهم هذا الأمر في سياق كبير ولا نحصره فقط في بعده الديني، فللأسف الكثيرون يتخذون من غطاء الدين ستاراً ليخدموا مصالح أنانية لدولهم وهذا ليس حجراً علي الشيعة فقط ولعلنا لنا ندلف إلي هذا الموضوع المعقد الأن.

من المبادرات الجميلة التي شكلت طعنة كبيرة لشيعة السودان ما أصدرته رابطة علماء التصوف في السودان من وثيقة تبرأت فيها من الشيعة ومن يخالطهم أو يشاركهم في الفكر من الطرق الصوفية. مثل هذه المبادرات يجب أن نراها كثيراً خاصةً علي مستوى المؤسسات الدينية مثل الطرق الصوفية المختلفة، أنصار المهدي، الأخوان المسلمين، الحركة الإسلامية، جماعات أنصار السنة المحمدية، وغيرها من المؤسسات التي يجب أن تتبنى ذات النهج للحد من جنوح منتسبيها وإنضمامهم للفكر الشيعي في السودان.

الرقابة علي النشاط الشيعي:

مما تناولناه بإستفاضة في هذا المقال، ستجد عزيزي القارئ أن هناك الكثير من الأنشطة التي يجب متابعتها والرقابة عليها بصورة لصيقة وهو ما يؤكد علي المسئولية المشتركة في هذه العملية، فمنها ما هو دعوي الطبيعة ومنها ما هو ثقافي، واخر إقتصادي بل هناك ما هو بالضرورة أمني في المقام الأول. لقد كنت أشرت إلي دور المجتمع ومنظماته المختلفة في الدور الرقابي للأمن المجتمعي والحفاظ علي وحدة المجتمع، إلا أننا سنركز هنا علي الدور الحكومي بصفة خاصة في هذا المقام في قضية الرقابة بإعتبارها من أهم مسئوليات ومجالات عمل المؤسسات الحكومية المختلفة. والرقابة هنا لا تحمل المعنى السلبي، بل تتعدى ذلك في إيجابية

الطرح والتعامل مع هذا التحدي في سياق منطقي وموضوعي وليس بمفهوم التعامل القسري مع هذه الأنشطة، فبلا شك الوقاية خير من العلاج. والرقابة الموضوعية أي التي تركز علي الموضوع والمضمون أكثر من التركيز علي الأشخاص أو المؤسسات هو ما نشير إليه في هذا المجال حتى لا يفهم بأننا نروج لدولة بوليسية بالمفهوم السلبي للرقابة.

ولعلنا في هذا المقام نذكر بعض هذه الأنشطة وكيف يتم مراقبتها:

النشاط التعليمي: لا شك أنه أخطر أنواع الأنشطة علي الإطلاق حيث أن خطورته تنبع من أنه يقوم علي زرع الفكر الشيعي في النشء جيلاً من بعد جيل، وهنا تأتي أهمية الإهتمام بمراقبة المؤسسات التي يعرف عنها إهتمامها بنشر هذا الفكر وسط الأطفال. وزارتي التربية والتعليم وكذلك الثقافة والإعلام بالإضافة إلي وزارة الإرشاد والأوقاف لها جميعاً دور محوري في هذا الإطار في تقوية الرقابة علي هذه المؤسسات والتأكد من عدم وجود أي من الأفكار التي تعارض العقيدة السليمة ويأتي هذا بعد غلق المدارس والحسينات المعروفة. ويتصل ذلك بالتعليم القرآني الذي لا أعلم يقيناً ما هي الجهة المسئولة عن الرقابة عليه وعلي مؤسساته، ولكن بالتأكيد سيكون لتلك الجهة دور محوري.

النشاط الثقافي: لعلنا قد قلنا بخطورة النشاط التعليمي لما له من تأثير عميق، لكن ذلك لا ينفي أن النشاط الثقافي هو الأكثر إنتشاراً علي من حيث عدد الأنشطة والقطاعات التي تستهدفها. الثقافة سلاح كبير لم يستخدمه الشيعة فقط والدول التي تتبى الفكر الشيعي، ولكن إستخدمته كافة الدول التي تهتم بمفهوم الغزو الثقافي كأداة هامة لتعزيز الوصول إلي أهداف سياسية إستراتيجية. وزارة الثقافة والإعلام عبر مختلف مؤسساتها لها دور قيادي في هذا المجال، ويجب أن يعي القائمون علي أمر الثقافة في السودان أهمية التوازن بين دور الثقافة بإعتبارها محور مهم في الدبلوماسية بين الشعوب وهو شئ مطلوب في حد ذاته، لكن موازنة ذلك مع اليقظة لما قد يترتب عليه دفع النشاط الثقافي من توفير أجواء ملائمة لنشر الفكر الشيعي حين تكون المواعين الثقافية المستخدمة تستخدم تحت غطاء الثقافة لأغراض اخرى، وقد تطرقنا سابقاً لأهمية التوازن في العلاقات الدبلوماسية القائمة علي مصالح وثوابت الأمة. بالإضافة إلي ذلك فإن مجلس المصنفات الأدبية سيكون له دور قيادي أيضاً في هذا الأمر، ويجب أن تقف القيادة والإرادة السياسية خلف المجلس في التصدي لمثل هذا الإستغلال السيئ لدور الفكر الثقافي في نشر الفكر الشيعي، ونسأل الله أن يعينهم في ذلك فهو دور كبير وصعب في ذات الوقت، لكنها مسئولية أساسية تقع علي عاتق القائمين علي المجلس ووزارة الثقافة.

النشاط المجتمعي: لقد تعرضنا بصورة سريعة لعدد من المؤسسات التي يشار إلي أنها واجهة للوجود الشيعي في السودان، وقد رأينا أن عدد منها ينطوي تحت مسمى ما يعرف بالمنظمات المدنية وهي مؤسسات يتم تسجيلها بصفة رسمية لدى مفوضية العون الإنساني لتعمل في مختلف مجالات التنمية المجتمعية. ولعل

المفوضية سيكون لها دور أساسي في متابعة أنشطة هذه المنظمات التي تسعى لتحقيق أهداف تؤدي إلي تمزق النسيج المجتمعي السوداني.

الأنشطة الإقتصادية: لعلنا لن نتوقع أن تحدث كل هذه الأنشطة دون وجود مؤسسات تقوم بتمويل هذه الإنشطة بشكل أو اخر، وقد قمنا بالإشارة إلي عدد من المؤسسات التي قد يكون لها صلة بهذا الأمر ويتطلب هذا الأمر متابعة لصيقة للجهات المعنية بمثل هذه الشئون لضمان قطع التمويل المتستر تحت أي غطاء غير واضح أو غير قانوني. ولعل مؤسسات مثل المسجل التجاري بوزارة العدل، البنوك التجارية، الأمن الإقتصادي وغيرها سيكون لها دور إيجابي وفاعل في كشف الغطاء عن هذه الأنشطة.

الخاتمة

لعلي في ختام هذا المقال أو أن ألفت إنتباهك عزيزي القارئ إلي ما قال به أحد قادة الشيعة في إحدى اللقاءات الإعلامية التي أُجريت معه، حين قال نصاً في سياق الحوار والذي نأخذ جزءً منه فقط "*المسألة الثانية هي غياب المؤسسات الشيعية الواضحة التي تهتم بهكذا نمط من الأنماط، ونحن كشيعة لدينا مركز في السودان، هذا المركز لا يمكن أن يغطي السودان بكامله. ومن هنا أننا نسجل دعوة لكافة المرجعيات والمراكز أن يهتموا بالوضع الشيعي بالسودان ونراهن أنه إذا كان هناك اهتمام متواصل ودائم سيصبح التشيع هو التيار الغالب في السودان*" ..... إنتهى حديثه ..... ونحن نرد عليه قائلين ... **لا وعزة الله لن يكون**.

إنتهى المقال

د. امجد محمد إدريس